٤٥

فقيد العلم والمعارف

مات المرحوم الأستاذ محمد افندى عيد[1] مفتش وزارة المعارف للتعليم الأولى بالزقازيق . مات رحمه الله فتساقطت لنفسه نفوس و تقطعت أسباب . جاور ربه بطعنات من معتد أثيم ، فويل للظالم من عذاب يوم عظيم !!

فجع فيه رحمه الله آلاف من الأصدقاء ، كان عليهم أعز من أنفسهم ، وإليهم أحب من أبنائهم . اللطيف عشرته وحلو محاضرته وشديد وفائه . وقد تخرج معنا فى دار العلوم سنة ١٩١٢ فخدم التعليم فى مجلس مديرية القليوبية إيثاراً منه للحرية ورغبة عن وظائف الحكومة . ولما رأى أن مجال الحرية فى خدمة المحاماة أوسع واستطاعة النفع أيسر اشتغل بها فى آخر أيامه نحو أربع سنوات ، وكان منه فى هذه المدة خدم جليلة للتعليم الأولى من التفكير فى عمل نقابة له تجمع شتات المعلمين فى أنحاء القطر وتحقق آمالهم . فجد لذلك جده المعروف وخدم الموضوع أخلص خدمة فى صحيفته الأدبية التى ذاعت لها شهرة فائقة على حداثة عهدها وهى « المعلقات » . وفى آخر أيامه بهذه الدنيا ألحّ عليه صديقه حضرة صاحب السعادة محمد على المغربى باشا « السكرتير » العام لوزارة المعارف إذ ذاك فى قبول وظيفة التفتيش فكان عهده بها آخر عهد الدنيا وعهدنا به

* * *

(١) وقع هذا الحادث يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤

أيها الفقيد الكريم : فى سبيل الله شباب كانت تزينك أبراده ، وتميس بك أعواده . قد وَقَفْتَه على المعروف تصل مقطوعه ، وتمنح ممنوعه ، وتعمُر ربوعه . وفى سبيل الله مروءتك التى تعددتْ حتى عمّت ، وجلّت حتى كأنما خصت . فكلٌّ خدين ، بها مدين . وفى سبيل الله همتك التى كانت علتك المُضْنِية . ويا عجبًا كيف متّ بغيرها . وشجاعتك التى كانت خطتك المُرْدِية . ولعلك اليوم صَلِيتَ بنارها .

فى سبيل الله خلق فات العلماءَ أن يصفوه . لأنهم لم يعرفوه ، بل لم يتخيلوه وكيف يصدّق الناس فى زمننا أن تحْقَر الدنيا فى مقتبل العمر . ويُرغب عن المال فى غير يسر . ويُؤْثَر حين لا إيثار ، من ليس بقريب ولا جار .

فى سبيل الله روحك التى ما سادفتْ نفساً إلا هزتها ، ولا عثرت بكربة إلا فرّجتها . وهذا سر فى تلك الروح لم يفتح الله علىّ بفهمه ! ! أكانت النفوس من نفسك مقبوسة ، فهى إليها دانية وبها مأنوسة ؟ أم هو سلطان القوة يأسر ثم يرحم أسيره ، ويجبر كسيره . لقد كنت فى الدنيا وكانت روحك معتَقَلَة فى جسمك . ثم هى لا تعبئُنا على البعد خطوراً ، فكنا نذكرك عشيّة وبكورا . فكيف اليوم وقد أفلتتْ من المقال ؟ فلعلها غير بارحة لنا من بال .

أيها الفقيد العزيز . . لا أجد من أعزيه عنك ، وليس ذلك من انقطاع نسب أو قلة قرابة . ولكن لأنى أجد الناس فيك رجلا واحداً فكل بك موتور ، وبالحزن عليك مغمور

لا أجد من أعزيه ولا من يعزينى عنك ، لأن الحزن فى قلوب عارفيك واحد لا يزيد ولا ينقص . فكأنه ظلام الليل . هو فى الخباء ، مثله فى العراء

فرحمك الله ورحم نفوساً سيأتى عليها الأسى من أجلك . ورعى عهدك الذى مضى كعهد الورد ، ذوى فى أنضر نضرة ، وشيع بأعظم حسرة . وسقى جدثك الذى ضمن المجد ، وانطوى على أشم طود .

ثم عليك سلام الله من الحزين الكسير القلب

محمود مصطفى

٤٦

وفاء شاعرنا حافظ

كل الناس يعرف فضل المرحوم حشمت باشا على حافظ ويقدرون نعمته التى تقلب فى أعطافها بعد البؤس الذى لم يُحسِنْ الصبر عليه ، بل كان دائم التبرم به والشكوى منه . فهذا شعره القديم ينطق عليه بالحق أنه كان بائسا فاقد الصبر واهىَ الجلد غير متجمّل فى فقره . فلما أراد الله له يسرا بعد عسر ، وفرجا بعد ضيق . أجرى على يد المرحوم حشمت باشا ذلك الخير الذى رفع حافظا اليوم إلى مقام الأمراء وأشباه الأمراء .

هذه واحدة من مكارم حشمت تريك كيف كان هذا المرحوم المبرور يعيد فيناسيرة الأجواد المشهورين من العرب . قيل إن الأستاذ الإمام رجا صديقه حشمت أن يُعِينَ حافظا على طبع الجزء الأول من كتاب البؤساء فلما مَثَل بين يديه بعد هذه التوصية أمضى له صكًّا بألف جنيه . فحين نظر فيه ظنها قروشا فظهر عليه حال المستقل للعطاء فقال له حشمت أعِدْ نظرك فى الصك فإنا قد أرضيناك . فلما تحقق أن الهبة ألف جنيه ولم يكن رأى ألفا قط ولا حدّثته نفسه بحيازتها يوما من الأيام كاد لبه يطير من الفرح وبهره الموقف فلم يدر ما يقول . ثم انصرف وهو يكرر الدعاء للباشا .

هذه واحدة ! ولو ذهبنا نعدد حسنات حشمت على حافظ لذكرنا ما كان من شأن كتاب الموجز وكتيّب فى التربية وغيرهما من الكتب التى

يعرف قلم « الحسابات » بالمعارف كم قبض حافظ من ثمنها

وإن واحدة من هذه لكافية أن يحبس حافظ قلمه ويهب روحه لمولاه فماذا كان منه من الوفاء الذى يتمدح به ويكثر الإدلال من أجله . لقد كان منه هذه القصيدة التى قالها بعد أربعين يوماً من الوفاء ، فلم يوفق إلى تخليد مولاه

قصيدة فى تأبين رجل من كبار المصريين تقلّب فى مناصب الدولة وتولى الوزارة مرات وأبلى فى خدمة التعليم وزاد من أنواعه التعليم التجارىّ الذى لم تكن تعرفه مصر . وحارب سياسة دنلوب الاستعمارية وعمل بهمة فى إحياء الآداب العربية حتى لقد تبرّع بالنفقة على طبع ديوان ابن الرومى . رجل هذا بعض شأنه لا يكون نصيبه من عبد إحسانه وفىّ مروءته إلا أربعة وثلاثين بيتاً اشتغل الشاعر فى أكثرها بنفسه فافتخر وذكر الأحقاد والحساد! فويل لهذا الذوق الذى لا ينسيه جلال الموت شؤون الدنيا من بغض وحب ، وبعد وقرب . وعناد ومشادة ، على المادة .

إن وقت الرثاء هو الوقت الذى تصفو فيه النفوس وتتجرد من حيوانيتها فتنطق بحكمة القدر وتتمثل منسىّ العبر ، وترجو الخلد وتخشى سقر . هذا هو اللائق بمقام الرثاء لا ما كان فيه شاعرنا حافظ اليوم من حرص على الحياة وتشبث بها وفرح بالظفر الموهوم ، بعد العداء المزعوم

إن حافظا يخيّل له وسواسه أن له أعداء يكيدون له ويدسون عليه ويتربصون به وأن الذى حرك فى نفوسهم هذا الشر هو فضله الذى بهر أبصارهم ، وحط أقدارهم ، بل محا آثارهم . حتى لقد بلغ به أن يشكو إلى الناس

حاله فيخيّل للسامع من كثرة ما يبالغ له فى تصوير هـذا الزعم أن هؤلاء الأعداء قد أسرجوا له وألجموا وتلبّبوا واستلأموا وأنه لو تسمّع لسمع وقع الحوافر وصلصلة السيوف . وفى كل مجلس يقول شـ . . يريد أن يقطع عيشى و م . . قد انبرى لى وسلّط علىّ . وأ . . يأجر الكتاب ليسبونى وينالوا منى . هذا زعمه . والحق أن الرجل واهم ، أو هو مريض يجب أن يُعرض على الأطباء حتى يريحوه من طغيان هذه الخال به . فلا حقد ولا عـداوة ولا إرادة سوء وإنما هو نقد صحيح خالص لوجه الله ولخير اللغة .

وقد اتفق أن شعر حافظ هو الشعر الذى يجد فيه الناقد عيوباً ظاهرة ومآخذ بينة . فجزى الله حافظا خير الجزاء ، بما قد أراحنا من عناء . إذ كان شعره بيئة صالحة لنمو الأغلاط النحوية والبلاغية ومضربا للمثل فى فساد الذوق وضعف الملاحظة

* * *

ونحن نبدأ بالنقد الموضعى فى هـذه القصيدة فنقول :

يقول حافظ فى المطلع .

حبَس اللسانَ وأطلق الدمعا ناعٍ أصَمّ بنعيك السمعا

وفضلا عن كون هذا البيت مسروق المعنى واللفظ من قول أبى تمام

أصمَّ بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلْقَعَا

نرى أن حافظا قد فاتته مراعاة براعة الاستهلال مع أن الفرصة ممكنة لولا أن ضعف ذوقه يجعله لا يبصر ما أمامه من موجبات الكمال . وماذا كان عليه إذا هو تمم السرقة من أبى تمام فقدم النعى والصمم به وجعل بيته هكذا

ناع أصمّ بنعيك السمعا حبس اللسان وأطلق الدمعا

ويقول بعده

كَمْ مِنّةٍ قد طوّقتْ عنقى ما إن أُرِيغُ لِطَوْقِها نَزْعا

وهذا بيت ليس فيه من جليل المعنى مايجعله أهلا لأن يلى المطلع فى القصيدة . ثم هو إلى جانب ذلك لا يصلح أن يكون تأبينا لعظيم كحشمت باشا . هل ترى فى البيت معنى أكثر من قوله إن لك فى عنقى نعما كثيرة لا أستبيح التحرر من رقها ، ومَنْ مِنَ الناس مهما ضعفت همته وسقطت مُروءته لا يستطيع أن يصطنع إنسانا واحدا فيطوقه بفضله ويشمله بخيره . لو أن حافظا يريد إعلاء لقدر مرثيه لجعل هذه المنن له على مصر أو على القضاء أو على التعليم . أما أنت ياحافظ فأن مثلى فى فقرى وصغر شأنى يستطيع أن يكون له منن عليك لاتريغ لطوقها نزعا

ثم يقول عن نفسه بعد موت الأستاذ الإمام وحشمت باشا

فَلَيْشْمَتِ الحُسَّادُ فى رجل أمستْ مناه وأصبحتْ صَرْعَى

وهنا نقف وقفة طويلة عند المصراع الثانى من البيت (أمست مناه وأصبحت صرعى) . أيريد حافظ أن يقول إن مناه صارت صرعى ؟ إذن كان يكفى فعل واحد وهى أمست أو أصبحت فأن المراد يؤدى به ولا داعى للتكرار لأن الفعلين هنا بمعنى صار . اللهم إلا أن يكون جرى على طريقة القائل (وألفى قولها كذبا ومينا)

فيكون قد وقع فى العيب البلاغى وهو التطويل . وإن كان مراده أن آماله وأمانيّه ماتزال تصرع فى كل صباح ومساء فليعلم أن تعبيره لا يؤدى

هذا المعنى إنما يؤديه قوله تمسى وتصبح لأن الفعل المضارع فى هـذا المقام يدل على التجدّد . والعجب أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت استعمل هذين الفعلين بخصوصها وأراد أن يدل بهما على هذا المعنى فقال

وإنّ امرأ يُمسى ويُصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

ثم يقول حافظ

إنْ جاء ذو جاهٍ بمحمدة وَتْرا شآه بمثلها شَفْعا

لا شك أن حافظا لا يعرف الفرق بين إن وإذا الشرطيتين لذلك تراه استعمل إن فى موضع إذا فى هـذا البيت فأساء إلى مرثيّه وهو يظن الإحسان إليه

إن تستعمل فى الشك ، وإذا تكون فى اليقين والله تعالى يقول (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون اللهَ فَاتَّبِعونِى) ويقول (إِذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ . . . .) فحافظ باستعماله كلمة إن يشك فيما يمدح به صاحبه وما ذلك بمناسب مايريد من تسجيل فضله

ويقول حافظ فى شأن أعدائه

أصبحتُ فردا لا يناصرنى غيرُ البيان وأصبحوا جمعا

لقد كنا نظن أن حافظا حين يشكو الأعداء يريد الأدباء الذين يزاحمونه فى الفضل ويهاجمونه بالنقد ويظهرون للناس جمود قريحته وحيرة قلمه . هذا هو ظننا وإذ ذاك ليس لحافظ ولا لغير حافظ إلا القلم الذى يسله سيفا يقطع به الألسنة ويرهب القلوب ولم نكن نظن أن مثل الأديب يحتاج كما يحتاج شيخ القبيلة أو زعيم القرية عندنا إلى العصبية أولا ، والجاه

عند الحكام ثانيا ليوقع الرعب فى قلوب الأهالى فيظلمهم كما يريد ويأخذ حقهم فى الماء من غير نكير عليه ولا انتصاف منه .

ماذا يريد حافظ غير البيان نصيرا وهو فى مقام إن استعان فيه بغير البيان لم يكن شريفا . هل يُرضى حافظا وهو يعدّنى من أعدائه أن يستعدى علىّ وزير المعارف ليوقع بى من أنواع العقاب ما يشغلنى عن حافظ أو ما يضطرنى إلى مصانعته ومداجاته ؟ أئذا كان حشمت رحمه الله وزيرا للمعارف اليوم سمحت لحافظ نفسه أن يشى بى إليه ويدّعى علىّ عنده ؟ لقد أخطأ حافظ إن ظن أن كرامة الوزراء تجيز لهم أن يحاربوا النقد كما يريد . فإنهم يعلمون قبل سواهم أن حياة الأدب فى حرية النقد وأن أطباء الشعر والكتابة هم النقاد الذين يقطعون العضو الفاسد ويحاولون تقويم المعوجّ ويقسون على المريض قسوة هى الرحمة له والإبقاء على روحه

ويظهر أن حافظا لا ينظر إلى نفسه نظرة الأديب الذى يرى أن الحجة الدامغة هى سلاحه وأن جلال البلاغة هو رعبه الذى يقع فى قلوب الأعادى وأن المعجبين به من القراء هم جنده الذى ينصره ويشد أزره . يظهر أنّ حافظا لا يفهم شيئا من هذا بل يعد الشعراء مثل (فتوّات) مصر منذ عشرين أو ثلاثين سنة فيكون شوقى هو محمود الحكيم وحافظ هو كسله هذا فى الدرب الأحمر وذاك فى الدراسة وثالث فى الحسنية وهكذا . هؤلاء (الفتوّات) حقًّا هم الذين يندبون حظهم حين انفضاض الأنصار وتشتت الأعوان وضياع الجاه وفقدان المدد فما لحافظ يقول

لا جاهَ تحمينى ولا مددٌ عنى يردّ الكيد والقذعا

لقد عهدنا الشاعر يُعين ولا يُعان ويُعْدِي ولا يستعْدِي . هذا حسان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعين به على الكفار وحسان لا يملك إلا لسانا يقول فيه

(وَيَبْلُغُ مالا يَبْلُغُ السيفُ مِذْوَدِي)

فما رأينا طلب المدد ولا اشتكى نقص المؤونة

ونعود فنقول إن حافظا أراد فى هذه القصيدة أن يوهم الناس أنه ظل إلى آخر أيام حشمت باشا حافظا لعهده مقيما على ولائه مترددا عليه فى وحدته عائدا له فى شيخوخته فحين فقده شعر بفقد الجاه وضياع الآمال وتقطع الأوصال فقال

قد ضقتُ ذَرْعا بالحياة ومن يفقد أحبّته يضق ذرعا

والحق أن حافظا كان فى شغل عن مولاه فى أيامه الأخيرة بالزلفى إلى غيره من الرؤساء أمثال نشأت باشا الذى طوّقه نعمة الرضا من حضرة صاحب الجلالة الملك فصار شاعر جلالته كما ذكر المقطم يوما ما ، وأمثال على ماهر باشا الذى اشترى بؤساءه وكتاب التاريخ المسمى (القصص التاريخية فى أشهر ملوك الأمة المصرية لتلاميذ المدارس الابتدائية).. فهو يريد أن ينسينا تلك الجفوة التى جفاها ولىّ نعمته وأول من خلع عليه ثياب النعيم

والحمد لله إذ كان حافظ اليوم منصفاً من نفسه إذ اعترف فى آخر القصيدة بالتقصير فى رثاء صاحبه. ولكنه عاد فوعد بتوفيته حقه فى مقام آخر إذا مد الله فى عمره فأشبه بذلك الحذّائين والخياطين حين يخطئون أو

يقصّرون فيقولون (المرة الآتية نعوّضها لك) هذا هو ما فعله حافظ فى قوله

سَأُفِيكَ حقّك فى الرثاء كما ... تَرْضَى إذا لم تُقْدَر الرُّجْعَى

لقد فاتتك الفرصة ياحافظ فهذا يوم الأربعين اعتاد الناس أن يظهروا فيه كل ما يعتقدون للراحل من فضل وأن يسجلوا له كل ما قدروا عليه من محامد . فأذا فات أحدَهم هذا اليومُ فما نظنه فاعلا شيئاً

٤٧

إلى الصديق البغيض[1]

داعبنا بعضَ الأصدقاء وهو أعز علينا من أنفسنا فكتبنا إليه هذا الخطاب نعارض فيه أسلوباً قديماً كان يستعمله الجاحظ

* * *

لا تحية ولا سلاماً . وبعد فقد خلعتك حذاء بالياً ، وهرَقْتُ صداقتك ماء آسناً ، وطرحتك فضلة آكل ، بل قِئْتك تخمة متخوم ، ومسحتك من الذاكرة قذراً عالقاً ، ونفيتك مشاغباً مائقاً ، واستأصلتك شوكا شائكا ، ونسيتك ذكرى مؤلمة ، بعد أن عرفتك حجة للوحشية قائمة

فاجعل كتابي إليك زجرةً لكلب نابح ، أو صفعة لمشاغب صائح أو طردة لطُفَيْلِيّ ، أو نفياً لدخيل دَعِيّ ، أو طلاقاً لامرأة سليطة ، أو خلاصاً من هُوّة سحيقة

فلا أراني الله وجهك يا ساعة النحس ، ويا طلاقاً ليلة العرس ، ويا سعي الحلائل على البعول ، ويا خضاباً فضحه النصول ، ويا حقاً ضاع ، لسوء الدفاع ويا تجاور الأخوين غنيّ راتع ، وفقير جائع ، أو عَقِيم يرجو ، ونَتُور يشكو . ويا جاهاً بلا مال . وهزيمة من غير قتال ، ويا صواباً يضاع ، وباطلا كثير الأشياع . ويا ضيعة الأديب ، ويا خيانة الحبيب . ويا موتاً في الأعياد ، ويا شماتة الحساد . ويا غلظة المسئول مع خجل السائل ، ويا كثرة التعويل على

(١) نشر هذا الخطاب في صحيفة عكاظ الذائعة

غير طائل . ويا عسر الولادة على جهل القابلة ، ويا تأخر الطبيب مع شدة النازلة . ويا غبياً بين الأذكياء ، وجاهلاً بين العلماء . ويا نسياناً فى امتحان ، وخسارة فى رِهان . ويا عودة الأجير بلاأجر ، ويا صوماً بلا فطر . ويا غلطة الحريص على الصواب ، ويا ذُلّ الوقوف بالأبواب ، ويا فرار اللص بأنفس مسروق ، ويا قبح الجزاء من المعتوق . ويا مرضاً بلا طب ، ودعوة إلى غير الرب ، ويا كفراً ساعة الموت ، وعرجاً حين الفرار والفوْت . ويا حريقاً فى صيف ، وسرقة من ضيف . ويا قبح الفقر ، ويا عذاب القبر . ويا مَعِيناً نَضَب ، ومُخْصباً أجدب . ويا فرقة بلاوداع ، وشركة ربحها النزاع . ويا بكاء من غير دموع ، وطلاقاً بلا رجوع . ويا مبيتاً بالعراء . فى ليالى الشتاء . ويا اجتماع العار ، مع الإقتار . ويا تهمة لاصقة ، وعقوبة ماحقة . ويا هم الدَّين ، وعقوق الوالدين . ويا بؤساً بلا رحيم ، ويا لعنة الشيطان الرجيم . ويا تِيهاً فى صحراء ، بلا زاد ولا ماء . ويا غلطة الطبيب ، ويا صمم المجيب . ويا خيبة الأمل ، بعد الجهد والعمل . ويا كسلاً عن ميسر رزق ، ووقوعاً فى أقبح رِقّ . ويا فضيحة بعد استتار ، ويا خِذلاناً بعد انتصار

فابعَد فإنك أظلم فى عينى من الظُّلَم ، وأشأم فى المناجاة من الصمم ...

٤٨

رواية أربعة آلاف جنيه

نمت ليلة على خلوّ من جيبى ، وضيق من ذات يدى ، فرأيت فيمايرى النائم كأنى فى مدينة لاعهد لى بشبهها ، وبين قوم لم يكتحل جفنى بأمثالهم . فقلت لعلها عَبْقَر حاضرة الجن فى أوهام العرب .

وبينا أنا أجول فى شوارعها فيستوقفنى منظر مارد يغيب رأسُه فى السحاب ، وينتزع بين أصابعه الدوحة من الغاب ، أو قزم تعثر به رجلى ، فيتسلق الشجر ليستوضحنى ويستجلى ، إذ رأيت على جدار من الجدران إعلاناً كتب بأحرف من نار ، تتوهج فى صدره هذه الكلمات (أربعة آلاف جنيه) فجعلت أقرؤه وأنا أبعد ما أكون منه جواراً ، وهو أدنى مايكون منى أواراً ، فإذا هذه الآلاف قد رُصدت بشروط لا يستجمعها إلا كل شيطان مريد ، وجبار عنيد .

أولها أنها لا تحل إلا لمن يملأ نهراً من دم ، وآخر من ناقع السم . .

وثانيها أن يعمد الراغب فيها إلى بضعة قلبه فينتزعها من موضعها ، ويزيدها فى لسانه ، ليتكلم إذا تكلم بلا قلب ، ولا يخشى غضب الرب . .

وثالثها أن ينفقها فى عزف وقصف . ولكن على قبور قتلاه ، وأن يقاسمها من عاونوه على المداورة والالف ، فى علانيته ونجواه .

ورابعها أن يتخذ من جماجم صرعاه جامه ، ومن أنين أهليهم ألحانه وأنغامه .

وخامسها أن يصر على باطله فلا يتوب ، ولا يستغفر لما جنى من ذنوب . ليلقى ربه على الكفر ، ويستقبل العذاب النكر .

فاستعذت بالله من حاجة تدفع صاحبها إلى مثل ما أرى . ولم أتوقع أن يكون من مخلوقات الله من يقبل هذه الشروط ، ويستسيغ هذه المنكرات ولكنى لم أكد أبرح مكانى حتى تقدم شيطان ، لا أدرى أمن الإنس أم من الجان . يتهافت من النذالة ، ويتضاءل من الجوع تضاؤل الذُّبالة . ثم رأيته مستوليا على المال مهنئا النفس بالشبع وقد بعُد به عهده ، والهجوع وقد عزب عنه وِرْده . وبالتقلب فى أعطاف الثراء ، بعد افتراش الغبراء . وحَتِّ الحصا عن جنبه المتعفر .

ثم أطار النوم عن عينى إقبال الصباح ، وجلبة الصياح . فحمدت الله أن كان ما هالنى رؤيا منام ، وأضغاث أحلام .

٤٩

رواية الأخوين

حدّث بعض أهل القصص أن رجلا من ذوى الأقدار فى مصر ارتقت به همته إلى عليا المناصب ، وكان رحمه الله قد أعقب ابنين أحسن تعهدهما وبذل فى تعليمهما من ماله وعنايته ماجعلهما يصبحان فى يوم من الأيام ذوَىْ شأن تتحدث به إليك

ورث الابنان من أبيهما همته ومضاء عزمه ولكن كبيرهما أدرك هذه العزيمة حين كانت شُعلة من الشباب ، وضِراما من الفُتوّة فصارت فيه نزقا وتشبثا ، بل مكابرة وتهوُّسا . أما الصغير فإنه وافاها على حينَ خالطتها حُنْكة السن وتمام التجربة فتمثلت فيه رجاحة رأى وصدق إيمان وفناء فى نصرة الحق واستبسالا فى خدمة الوطن

دخل الابنان فى زمرة الرجال ودعاهما الوطن للدفاع عنه فلبيّا النداء تحت لواء زعيم كبير ملَك من الأمة قلوبها واقتادها بأزمّة من الإقناع بصادق الخدمة والبراءة من الغرض . وقد ظهر هذان الأخوان فى هذه الحركة وكان من الواجب أن يظهرا ولكن

لَشتّانَ مابين اليزيدين فى الندى يزيدِ سُلَيمٍ والأغرّ ابن حاتم

فقد كان فى الأول حرص على العظمة وفَناء فى الشهرة يركب فى سبيلهما الشطط ولكنه يستر ذلك بما يدعيه كل محب لذاته من أنها آخر ما يفكر

فيه . وأول مايعرض عن نوازعه ودواعيه . فأخذ الزعيم من لهجته مايسحر ، وغرّه من التفدية بنفسه ما يبهر . فقربه واعتزّ به ولكن لم يلبث هذا الدعيّ أن ذاق مرارة الحقيقة وهاله بُعد الشُّقة ووعورة الطريق ، وأنه يجد أصحابه من الصبر فى دروع مضاعفة ، ومن تمام التضحية فى حال مجازفة . . فأراد الفرار من الميدان ولم يرض أن يكون نصيبه من الغنيمة الإياب لأنه فى حرصه شديد الذكاء ، ومن حب الشهرة راكب هَوْجاء . فتظاهر بالانشقاق على زعيمه وإخوانه لاختلاف فى الرأى وتفرق فى الكلمة . وجعل يهذى بأن الوطن الذى لبّى نداءه أولاً هو الذى من أجله ينشق على إخوانه آخراً ، وأنه لا يعنيه فى نفع الوطن رضاء أو غضب ، ولا مال أو نَشَب . فما زال يتدنى بهذه الكلمات من القبيل الخارج إذ ذاك على وَحدة الأمة المستعدى بالغاصب على تولى الحكم ، حتى ضمن وظيفة انزوى فى كِسرها وجعل يفنى أصابعه عضاً ، ويرُضّ أعضاءه رَضّاً . أسفاً على ما كان منه من مجازفة لم يكن يقدُر مداها . ولا يقرأ عقباها . ثم يعود فيحمد الله على الكَوْر بعد الحَوْر [1] ، والجبر بعد الكسر . ويا هد نفسه على الرضا بالحال وتقصير حبل الآمال فعلّ المقامر أشرف يوماً على الإفلاس فهو بعد شديدُ الاحتراس كثير الوَسواس .

ظل صاحبنا قابعاً فى وظيفته حتى دارت الأيام ودالت الدولة للكرام فإذا هذا الزعيم على رأس الحكومة وإذا إخوانه الذين ثبّت الله أقدامهم

(١) الكور التمام . والحور النقصان ومنه الحديث اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور

قد صاروا وزراءه تنظر إليهم الأمة نظر الجيش للقائد ، لا الطير للصائد . وهدأت البلاد فى حلم لذيذ من الأمن والدعة والإنصاف ولكن لم يلبث أن أفسده على الناعمين به زلزال عنيف ارتجت له الأرجاء

ومن عجيب الأمر فى هذه الدولة العادلة أو تلك الرؤيا الصادقة أنها قد أبى لها كرمها وإباؤها أن تنحط إلى مساجلة هذا الخصم القديم بل تركته فى عمله لأن الهمة التى تناضل عظمى الدول لا تنازل صغار الأفراد . أما صغير الأخوين ففيه من عظماء الرجال مَشابه ومَخايل. كان يعمل ولا يتكلم ، ويُعذّب فما يشكو ولا يتألم . فلم يلبث الزعيم أن عرف له صدق وطنيته إلى جانب عبقريته ، وتوسّم فيه على حداثة سنه رجاحة الكهولة ، بل تجربة الشيخوخة. فاستعان به فى أمره وولاه إدارةَ وزارةٍ مختلّة معتلّة فما رأى الناس قبل يومه طبيباً يداوى من الموت

إذا نَزَلَ الحجّاجُ أرضا مريضة تتبّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضال الذى بها هُمامٌ إذا هزّ القناةَ رَواها

ثم جرى نحس الأيام ، ودالت [1] دولة الكرام ، واضطربت كِفتا الميزان ، فإذا كبير الأخوين يتربع فى كرسىّ أخيه ، وإذا الصغير يُدفع فى ظهره إلى السجن مأخوذا بجناية كبرى فيلاقى ألوان العذاب على سمع أخيه وبصره ، فما يهيج فيه للأخوة حنان ، ولا يتحرك له بالاحتجاج لسان . وما ظنك بالنهم أصابته مَخمَصة ثم خُلّى بينه وبين طعام شهىّ ولحم طرىّ .

(١) يقال دالت الدولة بمعنى زالت أو قامت والمراد هنا المعنى الأول

فهل تراه ناظراً إلى غير طعامه أو سامعاً غير صريف أضراسه .

ولقد عاب عليه الناس أن يعين إدارة سلطت على أخيه أو أن يسعى فيها إلى جاه يرتجيه ، أو يهنأ بكرسيّ يعتليه . لا بل عجبوا كيف ينام وقد أقضّ على أخيه المضجع ، أو يهدأ وقد نبا بابن أبيه الموضع . ولكنها حمى العظمة لو أصيب بها والد لعبر على جثث أبنائه إلى حيث الجاهُ المتخيَّل ، والعلو الذى يجعله الله إلى أسفل .

ثم أراد الله للمتهم براءة ، ولكوكب مصر أن يطلع سعداً فاضطربت كِفتا الميزان مرة ثانية فإذا صغير الأخوين قد تقلد الوزارة وكأنه سيف مُرْهَفٌ ، وإذا الكبير قد صار فى الناس سوقة يتَنصّف

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصف

هذه هى قصة الأخوين

٥٠

البراءة

أعرف رجلا لم يجمع الله فى نفس ما جمعه فيه من نقاء سريرة ، وسجاحة خلق ، وعاطفة حنان . .

زهِد فى المال لغناه بأدبه ، وسخِر من المظاهر لفهمه حقيقة الدنيا ، وتواضع حين ضمِنت له صفاته الرفعة . فهو من أجل هذه الشمائل محبب إلى كل نفس، مذكور بكل لسان ، مَغْشىّ الجناب ، مُوَطّأ الأكناف

قد جعل المُبْتَغُون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

جرى القضاء بحوادث مَشئومةٍ أفلتت فيها السهام من أيد خرقاء فأصابت كبد مصر ، وكان من جناتها بعض عبيد إحسانه ، وصنائع عطفه وحنانه . فوجد المحققون آثار فضله مبثوثة فى بيوتهم مفرقة فى أهليهم فظنوا الظنون . وقالوا لم يعطف عليهم ولم يرأف بهم إلا وهو عالم بأحوالهم راضٍ عن أعمالهم . فكان هذا أساس التهمة

ولو أراد هؤلاء المحققون أن يهتدوا إلى الحقيقة فى أمر هذا المتهم بالخير لأرسلوا فى المدائن حاشرين يسألون من ذا الذى عرف فلانًا فلم يستأسر لشمائله ،ولم يُعْجَب بفضائله. ولم يقيده عُرْفه ، ويخلب لبه ظَرْفه ، حينذاك كانوا يعلمون أنه على أساس تهمتهم شريكُ كل جانٍ ومعين كل آثم ! !

رأيته فى قفص الاتهام . يُحاكَمُ على الوفاء لأن من المجرمين أصدقاء طفولته وزملاء تعلمه فهو لم يخضع لحكم الأيام فى فك الأواصر وتفريق الشمل وظل يذكر إخوان طفولته ويلقاهم من حين إلى آخر

رأيته يحاكم على المعروف ، لم أسداه إلى مستحقه ؟ وكيف لم يبخل بما من الله عليه من جاه ومروءة يخفف بهما آلام الناس أو يحقق آمالهم . وقالوا هذا صانع أحدثت له عملا ! ! وذلك تاجر أربحته فى صفقة ! وتلك حزينة واسيتها وباكية كفكفت من دموعها ! ! !

رأيته يحاكم على الكرم . ولو عدّوا ما ثره لأخطأهم العد ، أو تجاوز بهم الحد . لأنه زهد فى كل شىء إلا المعروف ، ورغب عن كل ذخر إلا ذخر السيرة العَطِرة

رأيته وقد تألّب عليه جماعة ممن لم يتق شر الإحسان إليهم فهم يحركون بالكذب عليه والاتهام ، ألسنة طالما تحركت بالإجلال له والإعظام . وينظرون إليه بأعين ملتهبة ، طالما بكت له من مسغبة . ويطوون على حقده ، قلوباً سبّحت قديماً بحمده . فكان ينظر إليهم نظر المحسن لا يزيده جحود نعمائه ، إلا مضيا فى عطائه

ثم رأيته — ولم يذهب عُرْفه بين الله والناس — فتقدم جماعة من كبار القوم المعروفين بحسن السَّمْت من بين وزير ووكيل وزارة ومُرَبٍّ فاضل فجعلوا يخلعون عليه أبهى من الحلل ، وينسبون إليه من الفضل ما لم يجتمع فى رجل . وهكذا أراد الله أن يُسَجل فضله ويُشكر فِعله حتى فى سجلات الحكومة وحوادث التاريخ .

ذلك هو الأستاذ حسن كامل الشيشينى . وقد خلصه الحق ، ونجاه الصدق . فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١	الله
٣	محمد
٥	رمضان فى العتبة الخضراء
٧	الصوم فى نظر الطب
٨	« « الاجتماع
١٠	سماحة الاسلام
١٢	« « أيضاً
١٤	فى سيدنا الحسين
١٦	« « أيضاً
١٨	يسيئون إلى الدين
٢٠	القرآن فى المحافل
٢٢	« « أيضاً
٢٤	ساعة بين كتب الفقه
٢٦	« « « الحديث
٢٨	حنبلىّ ! !
٣٠	توكلت على الله
٣٢	وما خلقت الجن والأنس . . .
٣٤	الدعاء
٣٦	أمريكا والإسلام
٣٨	مشايخ الطرق
٤٠	متنبئ جديد
٤٣	التناقض
٤٥	ولاية القضاء
٤٧	شهادة الزور
٤٩	ليلة القدر

الصفحة	الموضوع
٥١	القلب السياسى
٥٣	كتابنا
٥٦	شاعرنا حافظ
٦٢	شوقى
٧٠	حول الشوقيات
٧٢	تهذيب الكامل
٧٤	ديوان مهيار
٧٨	مراجعات فى الآداب والفنون
٨١	دار الكتب الملكية
٨٤	شيخ الاسلام
٨٧	وحيد الايوبى
٩١	المجمع اللغوى
٩٤	فى المعرض الزراعى
٩٩	فى المرقص
١٠٣	الطفولة
١٠٥	الحظوظ
١٠٧	البورصة
١١٠	الانتحار
١١٢	فقيد العلم والمعارف
١١٥	وفاء شاعرنا حافظ
١٢٣	إلى الصديق البغيض
١٢٥	رواية أربعة آلاف جنيه
١٢٧	رواية الأخوين
١٣١	البرامة

الخطأ والصواب

الخطأ	صوابه	صفحة	سطر
يَفْعَمِ	يَفْغَمِ	٥	٦
حُفِرَ	حُفِرَ	١٥	٢
١٥ رمضان —	١٥ رمضان سنة ١٣٤٤	٤٤	٤
فيـ	فيه	٤٦	٣
يجعل	بجعل	٥٦	١٦
أذكر	اذكر	٦٨	١٥
فأقبل	فاقبل	٧٠	٩
لها	لها	٧٣	٤
باطلة	باطله	٨٠	٥